

أفراح العالم

قصة بقم منذ الفرا

لو تفهينها من الداخل» .
فقلت : « أهذا الحد ؟ » .
« دعينا من هذا ، رجاء . فالصمت والسلام يفيدان حلوة على كل شيء . وها نحن معا » .
(كثيرا ما أفكر لماذا عرفتك . وأية وشائج ربطتني بك نزيل لا يام ! مهزلة . لكنك كنت مهذبا للغاية . هل أقول كان في روحك ذعر ؟ كنت منطلقا ، فرحا ، ضاحكا . نسيت ؟ حاولت أن تلثمهم كل شيء يعترضك .)
« لنفرض أقدامنا في كل مكان . دعينا نعش يومنا » . هذه كلماتك .
حطمت الرابطة التي أحيها . وزرعت روحك بي . فاعترفت واعترفت .
وأغرقتني بشوق لمهاج كدت أنساها . فأحسست بالأيام المضاعة ومهانة السنوات الطوال الطافحة بالمرارة . كهزنتي مشاعرك . ففرت بك .
وتندرت بكلماتي في أرحج اللحظات ، في أبهاها ، وأنت تكررها « أختي ان يكون ما يتناهي حيا . ولكني سعيدة . سعيدة ونعيسة معا » .
أفهمت الان ما عنيته ؟ كان ثمة شيء يلاحقك كقدر ، يستحكك . كانها آخر ايامك . فأيقظتني . ولكن لم ؟ وماذا جنيت ؟ لنضع هذا . بالمناسبة . ذهبت مع الصديقة جوليا الى العزيرة بلاك بول منذ أيام لقضاء ليلة .
وكم افتقدناك .)
فالتت مارغريت : « ساعمل في الصباح حتى العاشرة . وبعدها يمكننا أن نرحل الى بلاك بول بالقطار . هناك أعرفت بجوليا . ويرتب صديقها كل شيء » .
ووافقت بالطبع . كان القطار يخترق ريفا أجرد أحيانا ، مخضرا أحيانا . كنا في قسيم منفردين . قطار مهترى بطيء ، والشمس تلفنا بدفء واه . كانت مارغريت في ذروة الانتعاش . والسهر والانهاك برسيمان هالة حول عينيها . كنا ندخن ونتكلم .
« كان أخي بيتر يعني دائما . يقول اني بليدة . وليس لي عينا نسر . انه رجل عملي . حيدا لو أعرفك به . انه يقضي اجازته على بعد نصف ساعة من الساحل . كان يرجوني أن أكون أكثر مرونة . وأن أتزوج وأنجب . ولكني لا أستطيع . لا أستطيع » .
قلت : « انه محق . فهذه طبيعة الامور » .
قالت : « أعتقد أحيانا اني من جيل اخر . تصور انه يستحيل علي أن أنام مع أي انسان . وكلهن لسن كذلك . خذ جوليا مثلا . انها تخرج من العمل في الخامسة . ولا تطيق البقاء لحظة مع نفسها . فتهرب الى صديقها . الى مرقص ، الى أي صديق ، الى جورج اذا ضاقت السبل . وبعد ذلك الى الشيطان . أتصدق منذ متى لم أعرف الحب ؟ » .
« ربما منذ شهرين . لقد كنت رائعة » .
« منذ عامين ونصف . تصور . تقول الصديقات اني حمقاء . ولكن ما ذنبي ؟ أقول لك ، انه عالم غير عادل . فما قيمة المرء بلا . . لنقل بلا تعاطف ؟ » .
فقلت : « بطريقة أو بأخرى ، علينا أن نعيش » . وبعد لحظات :
« ألا يحضر بيتر مرارا الى تشستر ؟ » .
« يحضر كل ثلاثة شهور أو اربعة لقضاء عطلة الاسبوع . لم يبق في دنياه سوى عائلته . وفي كل مرة كان ينظر الي وكانسه يقول :
« ليس من جديد ؟ ها أنت وحيدة أيضا » . ولكن صغيره رائعان ، كم

أيام ويزدهر العالم بالورد والاصواء والحنان . يتذكر الناس عذوبة لعبة الحياة التي وهبها ، فيتمرغون بالرقص والحب والشراب .
وتعانقك انت الامنيات وتلوج الشتاء اللؤلؤية ، فتفادرين تشلغر بالقطار منذ الصباح الى لندن . وكالقطار ، تستقبلك محطة بيتر وعائلته ، فيلقاك بشاشة شاحبة « أهلا مارغو . كم يسعدني حضورك » ويهمل الصغيران ، وتقدم الزوجة الاحترام ، وتفص اللحظات بالقبيلات والضحك وتبادل الاخبار . ثم يبدأ القظ ينشأ مخالبه ممزقا فسي قلبك ، ككل عام .
(لو حضرت ، لكان من الممكن أن نحيا أياما رائعة . كنت شعلة من نار . يا لله كم أنتم محرقون . في جنباتكم تلتهب حياة . ولكن لم أكر الأشياء التي لا تلذ لك ؟ يكفي أن أذكرك بتجوالنا عبر الطرقات الطويلة هنا ، وفلسفاتنا اللامجدية ، وسهراتنا في نزلك ، وضحكنا الذي لم ينقطع ، وأملنا بحياة تكف عن افتراسها المتاعب . يكفي أن أذكرك انك امام عام جديد ، فبم تحلم الان ؟) .
قدم صاحبي مارغريت : « انها صديقتنا ، هي تحب العرب . أرجو لك معها وقتنا طيبا » .
وأكمل بالعربية : « ليس منها خير . اذا كان يهكم الامر ، ابحت عن اسهل منها » .
ضحكت ملء قلبي وقلت : « أشكرك » . والتفت اليها : « سعيد بمرقتك » .
بعد نصف ساعة كنا نسير على رصيف عريض : الشارع تعانقه الاشجار خضراء . وأطياف هاربة هنا وهناك ، والجو كالعادة ، ينذر بعاصفة . والرذاذ يقسل وجهينا .
قالت : « يحلو لي أن أسير في المطر . ان بي ضيق صدر . واضيق بالمكوث بين الجدران » .
قلت : « لعله ضيق قلب عن إحلامه . ومع ذلك فالطقس خريفي منعش ومقبول » .
« صحيح . هذا بالذات ما يشيرني . فحين تقترب المرأة من الثلاثين ، تصف بها الهواجس . وهذا الشارع أثير ومحجب ، فيه سرت مئات الكيلومترات مع السيد عوض . هو من بلدك ولا بد تعرفه » .
قلت بلا مبالاة : « نعم . هل كان صديقك ؟ » .
« صديق ؟ كان فتاى الاول . على يده تمرغت بالحياة . كنا متحابين لدرجة الجنون . ثم ، ثم زار الوطن فاذا به يعود بعروس ويتحاشاني كقار . وصديقك الآخر هذا ، أحبته ميري حتى العبادة . الذي حدث انه زار دمشق فاذا به يعود بزوجة . اني لا أفهمكم » .
فقلت ضاحكا : « انكم لا تجيبون الطهي . والحب ، كما يقولون ، يمر عبر المعدة » .
ضحكت مارغريت : « بل أنتم محافظون . انما تحبون انطلاقنا » صممت قليلا وتابعت : « يبدو لي انكم متفائلون . لا شيء ذو خطر لديكم . حياتكم سهلة وغدكم لا يعينكم . وكان الزمان لمبتكم » .
ابتسمت . الشارع ممتد بلا نهاية ، نظيف ومتسع . والاشجار خضراء مصفرة تعصر القلب شجنا . قلت : « ما تعرفن عن حيانا ؟ » .
« سماتنا فيكم » .
« هيه . . لو تعانيتها . لو تدرकिन هذه الآسيا التي زرنا فيها .

أشفاق اليهما . على أي حال ، نحن معا وسوف نقضي أمسية ممتعة » .
وصممت مارغريت لحظة ثم قالت : « وفي دمشقكم ، كيف تحيون
السنة الجديدة ؟ » .

قلت : « كما في كل مكان من العالم القديم المتعب » .
وأتسمت حدقتها : « ماذا تعني ؟ » .

فقلت : مارغو . قلت لك أننا من عالم اسويوي تيقظت روحه على
عدم . وقلة منا تدرك وتنظي وتتخبط » .
فقلت باسمية : « ربما لا أفهم . فنحن الانكليز نادرا ما يهمننا أمر
الآخرين . لعله يحسن بي أن أصمت » .

« كيفنا ثرثرة . ثمة الآن ، وحدنا ، أجمل من الكلمات » .

(والان ، كم مضى من الايام منذ أن قلت : الى اللقاء . لم أشف
بعد من فكرة انني التقيت بك . وغالبا ما أذكر أشياءنا الجميلة التي
سعدنا بها . كنت محظوظة بتلك الفترة ، وأنت تدفعني الى المستقبل
وأنا أجرك الى ماضي . وكلانا يتأمله الشوق والاسف .

آه يا صديقي ، لو تذكر . لو تعي أية حياة عشناها . تذكر نزهاتنا
على رصيف الشاطئ الطويل ، بعد خروجنا من « سمتر » وقبيله ،
نصوانين أمام تشقق الفجر ، متيقظي الروح حتى الانهار . لكن أي
انسحاق كنت به . أي ألم . تحدثنا عن عامنا الجديد ، معا ،
وكننا نحلم .

هيه . . ها قد انتهى العام ومضفنا الايام . يومها وعدتني . ألم
تدرك معنى الوعد؟ عندنا . اكفر بكل شيء الا بتحقيق عهد .
أم من يدري ؟) .

كان نادي سمث ، حيث دعانا جورج لقضاء السهرة ، ملتقى
النخبة . وجورج صاحب مرقص للمراهقين . تجاوز الاربعين . رجل لكل
الاعمال . كانت ترافقه جوليا ، بعينيها المشتمين بالفرح ، بوجهها
الطفولي ، بقوامها الرائع المهفوف ، بصدرها الناهد العاري ، بعمر
لم يتجاوز العشرين .

قدمتني مارغريت اليهما ، واستقللنا سيارة جورج ، وبعد دقائق ،
كنا في زاوية مظلمة من النادي .

وقال جورج بسمة تعلبية : « ما أجمل مفاجآت مارغو . لقد
رفضت قطتي الصغيرة الخروج بحزم ، ولكنها هزلت حين علمت
بحضوركما » .

فقلت : « لعله حظ الفريب أن يقضي وقتا طيبا مع سادة وفي
ناد محترم » .

وابتسمت في وجه مارغريت ، فضغطت على يدي وقالت : « كنت
واقفة انهما يحلوان لك » .

كان جورج يختلس النظرات الى جوليا . ويمد يدا شبيقة تتلمس
اطراف الفتاة . كانت عيناه زانفتين وشيء يلعب في ذهنه . كان ،
بين الحين والحين ، يهمس في أذنها ، يشم بشرة خديها ، يتمسح
ككلب ، فتبتسم موافقة ، وتميل برأسها اليه . ثم تومض عيناها نحو
مارغريت بمعنى . ونظرت الى الصديقة ، فمزتني . ثم مالت نحوي :
« نعم . لكنها رائعة . على أي حال هي راضية » . ولحظت جوليا
فابتسمت ، ورفعت الكأس في وجهي ، ورجت السعادة لكل العالم .
كان الجو محموما . كان عالما يشع بالامل ويحترق بالكحول . فرقصت
مع الصبيتين ، وتبادلنا الانخاب . وسمعت جوليا تصرخ : « مارغو ،
حرقت نوبك . أف منك . مستهتره دائما » . وانقلبت سحنة مارغريت
وسقط رأسها في حضنها « هكذا يحدث دائما . أنسى ان للسيكاره
رمادا محرقا . أليس ثمن السهوم قطعة تريكو جديدة لا ترفع ؟ فترد
جوليا « لا بأس . لم أقصد أيداعك » فيلتفت جورج وهو يخاصر جوليا
« لا تقلقي . ففي المخازن الكثير » . ويفرز وجهه الاحمر المنقط فسي
بشرة جوليا « أليس كذلك يا حبيبتني ؟ » فترد وعيناها علينا « بالطبع .

أقول غير الصحيح يا عزيزي ؟ » فيبتسم وينفخ . وتومض عيناها
جوليا . ويسقط رأس مارغريت الى حضنها باستمرار ، ويختنق اللعاب
في حنجرتي . فتموه وتقول « كأس ضيفنا » ويلتفت جورج نحوي
« قلت أنك عربي ؟ لا بد ان الشرق رائع بالشمس » . فأهر برأسني
فيتابع « هذا ما نفتقده » . ويعود الى جوليا ، مدغنا ، هامسا ،
مبتسما بالرغم عنه . ويلفها بحنان وحشي ، وتفترق بي مارغريت ،
وتحدثني طويلا . ثم تقول : « عدني أن تعود » فأجيبها « أعدك » فتكرر
« لم أسمع ، عدني » فأقول : « قلت أعدك ، ان تمكنت » . وأحس بها
على صدري ، ودعيه مضاعة .

ومع غيش الفجر غادرنا النادي . وطلبنا أن يلفظنا جورج بحذاء
الشاطيء .

وخرج من السيارة مودعا : « أرجو أن نلتقي مرارا » .
وقالت جوليا وهي ترتعد في مقعدها بجوار السائق : « سننتظرك
أول السنة » .

قالت مارغريت : « كانت سهرة لطيفة . جوليا كذلك . انسي
أحبها » .

كنا متخاصرين . العالم يلفه السلام . وشوشات الموج تؤنسنا .
ونحن نشهد مولد الفجر .

وقالت فيما بعد : « بحق المسيح ، كثيرة هي لحظات السعادة » .
« أنها تتوقف علينا أحيانا . ولكني أفكر في العيد . أفكر الآن ،
ونحن معا ، نختنق غبطة . أسائل نفسي هل خلق الله عالما واحدا أم
عوامل كثيرة ؟ » .

فأجابت على الفور : « اسكت أرجوك . لا تفسد النشوة . شيء
واحد يهم الان : ان تمدني بالعودة » . فقلت : « اطمنني » . ثم قالت
بعد صمت : « انه غير عادل . هذا العالم غير عادل » .

لم أتكلم . كان الصباح صقيعا ، والعالم صامتا . كان وقع
أقدامنا سلوانا .

(والليلة الاخيرة ؟ هل تفرقك مثلي باستمرار ؟ كان كلانا لهيبا
محرقا . كما لو اننا غفونا دهرا واستيقظنا فجأة على الكارثة . حاولنا
المستحيل . ولذنا الاحتراق فازدنا تأججا . يومها كنا الحطوب والشواء .
يومها كنا البداية والنهاية . يومها ، أعني في الضحى وبعد غفوة ،
أدركنا روعة المعجزة . وارتيت مشاعرك الحقيقية بالتمويه والضحك .
ولكن لماذا ؟ الا يمكن لجدران الصمت أن تنهار ؟ لو عرفت أنك لن تعود ،
ما عملت أثناء وجودك هنا . كان يمكن لسكربتيرة منتقلة أن تضحى
بعشرات الشلنات مقابل بقائها طوال الوقت معك . لقد عملت ثلاثين
ساعة وأنت هنا . احصيتها حين استبطانك . وأدركت كم كنت حمقاء .

لكن خبرني كيف ستقضي بدء عامك . مع من ؟ أين ؟ وستتابك
خطواتي . واياك أن تنسى نخبي . لقد وعدتني وأخلفت . ومنذ أربعة
شهور لم تكتب لي (تذكير فقط) . ربما سانتترك عاما آخر ، ولكنني
لا أستطيع . وكلما اجتمعت ببعض من صديق هنا ، تمثل لي الوقت
الرائع الذي قضيناه معا . وهم رغبت لو كنت معنا ، هل يعقل هذا ؟
على أي حال سأقضي ليلة العام مع أخي بيتر وعائلته . لا بأس .
الطقس هنا سييء للغاية . والشمس حلمنا الابدي . هنا الان ، كالعادة ،
مطر مطر مطر . .

أرجو أن تعلم اني-أفتقدك كثيرا ، وأمل أن تدخر بعضا من فصل
وقتك كي تكتب لي وتقول أنك افتقدتني قليلا . وسوف أسامحك عندئذ
بقدر ما تستطيع فتاة مسيحية طيبة أن تفعل .

كثيرا من الحب لك ، يا صديقي ، وأيضا ، بالطبع ، كئيبا
من القبلات) .

منذر الفراء

دمشق